العلوم عند العرب

(تابع لما في الجزء الثاني عشر)

واما الطبّ فقد كان عند العرب قديماً على ما سبق الايمآء اليهِ الا انهُ كان مقصوراً على المجرّبات كما هو شأن كل امةٍ في حال بداوتها . واول من ذُكر من العرب انهُ تناولهُ عن درس الحرث بن كلدة المشهور من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جُنْدَيسابور وغيرها . ثم انهُ لعموم الحاجة الى هذا الفن تنبه لهُ الخلفآء قبل غيرهِ من العلوم وكان اول من اهتمّ بهِ منهم مروان بن الحَكَم رابع خلفآء بني أُمية وكان طبيبهُ ماسرجويه البصري وهو سريانيّ اللغة يهوديّ المذهب فعرَّب لهُ كتاب أَهرُون الاسكندري المعروف بالكُنّاش[1] وهو اول كتابٍ في الطب نُقل الى العربية . وجآء بعدهُ الوليد بن عبد الملك فزاد هذه الصناعة تعزيزاً وبنى دوراً للمرضى وجعل فيها الاطبآء والممرّضين وأجرى عليهم الارزاق . وذكر ابو الفَرَج ان الحجاج اختصّ

(١) قال في القاموس الكناشات بالضم والشد الاصول التي تتشعب منها الفروع قال صاحب تاج العروس ومنهُ الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط هكذا يستعملهُ المغاربة واستعملهُ شيخنا في حاشيتهِ على هذا الكتاب كثيراً اهـ والكلمة سريانية الاصل وهي كناش بدون هآء ومعناها جملة الشيء واصل الفعل بمعنى الجمع والضمّ ومنهُ اشتقاق الكنيسة وهي عندهم بالشين المعجمة و بالواو مكان اليآء واصل معناها الجماعة

والكناش للكتاب المذكور موضوع في الاصل باليونانية وواضعهُ اهرون المشار اليهِ ثم نقلهُ سرجيس الزاس عيني الى السريانية وعنها نقلهُ ماسرجويه الى العربية

بخدمتهِ اثنين من الاطبآء وهما تياذوق وثاودون قال وكان لتياذوق تلاميذ اجلآء تقدموا بعدهُ ومنهم من ادرك الدولة العباسية كفُرات بن شحناثا في زمن المنصور . الا ان الطب لم ينل عندهم من العناية ما نالهُ بعد ذلك في عهد العباسيين بل منهم من كان يأبى التطبب تورعاً حتى روى ابو الفرج عن عمر بن عبد العزيز انهُ لما مرض قيل لهُ لو تداويت فقال لو كان دوآئي في مسح أُذُني ما مسحتها نِعم المذهوب اليهِ ربّي . فلما افضت الخلافة الى بني العبّاس تقدم المنصور ثاني خلفآئهم الى عاملهِ بجُنديسابور ان يُنفذ اليهِ جرجيس بن بختيشوع النسطوري وكان اشهر اطبآء وقتهِ فحظي عندهُ وعرّب لهُ كتباً في الطب عن الفارسية كما سبق لنا ايرادهُ . وتلاهُ ابنهُ بختيشوع وكان طبيب الرشيد وبقي بعدهُ الى ايام المتوكل ومما يُروَى عنهُ انهُ في بعض الايام تمطّت حظيّةٌ للرشيد ورفعت يدها فبقيت مرفوعةً لا يمكنها ردُّها والاطبآء يعالجونها بالتمريخ والادهان فلا ينفع ذلك شيئاً فاشار جعفر على الرشيد باحضار بختيشوع فاحضرهُ وشرح لهُ حال الصبيّة فقال جبريل ان لم يسخط امير المؤمنين عليَّ فلها عندي حيلة فقال الرشيد ما هي قال تخرج الجارية الى ههنا بحضرة الجمع حتى اعمل ما اريد وتمهل عليَّ ولا تسخط عاجلاً . فامر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل اسرع اليها ونكس رأسها وامسك ذيلها وهمّ ان يرفعهُ فانزعجت الجارية ومن شدة الحيآء والانزعاج استرسلت اعضآؤها وبسطت يدها الى اسفل وامسكت ذيلها . فقال بختيشوع لقد برئت يا امير المؤمنين فقال الرشيد للجارية ابسطي يدكِ يمنةً ويسرةً ففعلت فعجب الرشيد وكل من حضر

وامر لهُ في الوقت بخمس مئة الف درهم

وممن نبغ في وقتهِ يوحنا بن ماسويه صاحب التصانيف المشهورة وكان من بطانة الرشيد وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيهِ من كل نوعٍ من العلوم القديمة. وخلف بختيشوع ابنهُ جبرائيل ثم جرجيس اخوهُ ثم بختيشوع ابن يحيى وكان طبيب المقتدر واستمرّت اعقابهم في بني العباس الى سنة ٤٥٠ للهجرة وكانوا على التدريس والترجمة في مدرسة بغداد والتطبيب في دار الشفآء بها ولهم تصانيف كثيرة . وذكر بعضهم ان عدد علمآء الطب ومدرّسيهِ وطلبتهِ في مدرسة بغداد ورجال ندوتها العلمية بلغ ستة آلاف نفس . واشتهر في هذه المدة عدة اطبآء غير هؤلآء منهم حُنَين بن اسحق العباديّ تلميذ يوحنا بن ماسويه وكان طبيب المأمون وعرّب كتب ابقراط وجالينوس وافلاطون وغيرها وبقي الى ايام المتوكل . ومنهم قسطا بن لوقا وثابت بن قرّة وهما ممن عرّب كتب جالينوس وابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وهو احد الفلاسفة الذين اتصلوا بالمأمون والمعتصم وسنان ابن ثابت بن قرّة وكان من اطبآء المقتدر وابنهُ ثابت بن سنان وكان في ايام المطيع لله وكان يتولى تدبير البيمارستان[1] ببغداد . ومنهم عليّ بن عباس المجوسي الاهوازي صاحب كتاب الكامل صنّفهُ لعضد الدولة بن بويه وابو

(١) قال في شفآء الغليل البيمارستان لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناهُ المريض وستان هو الموضع . اهـ . ويقال فيهِ ايضاً المارستان ذكرهُ في شفآء الغليل ايضاً وهو الذي اثبتهُ الجواليقي والمرتضى في تاج العروس وفسراهُ بما ذُكر لكن المتعارف اليوم انهُ موضع المجانين بالخصوص وبهذا المعنى استعملهُ بديع الزمان في المقامة المارستانية وابن الجوزي في كتاب الاذكيآء وكانهُ من باب الغلبة

الحسن هبة الله بن صاعد ويُعرَف بابن التلميذ كان قسيساً ببغداد وكان في ايام المقتفي لامر الله قالوا ولم يكن مثلهُ بعد ابقراط وجالينوس ومنهم ابو البركات هبة الله بن عليّ بن ملكا صاحب كتاب المعتبر في العلوم الحكمية وهبة الله بن الحسين الاصفهاني وغيرهم

وكان طب هؤلآء كلهم مأخوذاً عن كتب ابقراط وجالينوس قلما عدَوها ولم يكن لهم من الاستنباط او الاكتشاف في هذه الصناعة ما يُذكَر سوى ما يقال من انهم اوضحوا تشخيص بعض الحميات النفاطية كالجُدَري والحصبة والحمَّى القرمزية لكن ربما زادوا في الصيدلة على ما تلقوهُ عن كتب اليونان فانهم على ما قيل اول من استقطر المياه والزيوت واول من استخدم مركبات الزئبق في الامراض الجلدية ولا سيما البرص واول من اشار باستعمال المنّ والسنا والتمر الهندي والرِوَند والكافور وغير ذلك . واشهر من اشتغل من اطبآئهم ابو بكر محمد بن زكريآء الرازي مؤلف كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً وكتاب الحاوي في خمسة عشر مجلداً وغيرهما ولهُ رسالةٌ في الجدري والحصبة يقال انها اقدم كتابٍ ورد فيهِ ذكر هذين المرضين ويُنسَب اليهِ اختراع الخلال المعروف عند الاطبآء وهو القائل اذا كان الطبيب حاذقاً والعليل موافقاً والصيدلانيّ صادقاً فما اقلّ لبث العلة . وكان الرازي من المتقدمين في الطب والهندسة والمنطق والموسيقى وهو اول من صنّف في الطبّ اخذاً عن جالينوس وعن كتب الهند والفرس وجآء بعدهُ ابن سينآء فبسط ما ذكرهُ الرازي في كتاب الحاوي وتمم ما فاتهُ ولذلك يقال كان الطبّ معدوماً فاوجدهُ ابقراط وميتاً

فاحياهُ جالينوس ومتفرقاً فجمعهُ الرازي وناقصاً فكملهُ ابن سينآء . وكان ابن سينآء العَلَم المشار اليهِ في جميع علوم وقتهِ لم يأتِ قبلهُ ولا بعدهُ من ادرك منزلتهُ او اشتهر شهرتهُ وكانت مؤلفاتهُ في الطبّ والفلسفة تُعَدّ خلاصة ما كُتِب قبلهُ حتى استغنى الناس بما كتبهُ وانقطعوا الى مصنفاتهِ ولا سيما في الطب فان كتابهُ القانون كان هو الكتاب المعوَّل عليهِ في آفاق الشرق عامةً ثم انتشر في اوربا فطُبع في رومية مع كتاب النجاة سنة ١٥٩٣ وبقي متداوَلاً في جميع مدارس اوربا نحواً من خمس مئة سنة وتُرجم الى اكثر لغاتها فكانت منزلتهُ في الطب منزلة المجسطى في الهيئة

هذا في بلاد المشرق واما في المغرب فكان في الاندلس اربع مدارس للطب احداها في قُرطبة والثانية في اشبيلية والثالثة في طُليطلة والرابعة في مرْسية . وممن نبغ من الاندلسيين ابو القاسم خلَف بن عباس الزهراوي من اهل القرن الخامس كان طبيباً جرّاحاً لهُ عدة تصانيف منها كتابٌ في امراض النسآء وآخر في الجراحة وكتابٌ في تركيب الادوية وغير ذلك وهو اول من طُبعت مصنفاتهُ في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ . ومنهم بنو زُهر وهم اشبه ببني بختيشوع واشهرهم ابو العلآء بن زُهر بن ابي مروان ثم ابنهُ ابو مروان عبد الملك بن ابي العلآء ثم ابنهُ ابو بكر محمد بن ابي مروان . وعبد الملك هذا هو احد الذين اخذ عنهم ابن رشد الفيلسوف الطبيب المشهور وهو صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية وكان لهذين الكتابين شهرةٌ عظيمة في المغرب والمشرق قيل وفي ايامهِ وصل القانون الى بلاد الاندلس فلم يعجبهُ وصار يقطّعهُ ويصرّ فيهِ الادوية . ومنهم ابو الوليد

محمد بن رشد القرطبيّ وقد تقدم ذكرهُ والوزير ابو المطرّف عبد الرحمن ابن شهيد مصنف الادوية المفردة وابو عبد الله محمد بن معمر المالقيّ وهو صاحب عدة تآليف منها شرح كتاب النبات لابي حنيفة الدِينَوَري في ستين مجلداً . ومنهم ابن البيطار ضيآء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد المالقيّ من اهل القرن السابع وهو صاحب كتاب المفردات المشهور قال في نفح الطيب انهُ حشر فيهِ ما قدر عليهِ من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصِقِلّي وغيرها . قال وكان ابن البيطار اوحد اهل زمانهِ في معرفة النباتات سافر الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بجماعةٍ كثيرة من الذين يعانون هذا الفن وعاين منابتهُ وتحققها ولهُ عدة تصانيف تدل على غزارة فضلهِ . اه . ومن معاصريهِ ابن نفيس عليّ بن ابي الحزم القُرَشي صاحب كتاب الشامل في مئة مجلد ولهُ كتاب المهذب في الكحالة وابو العباس ابن الرومية الاشبيلي ولهُ كتابٌ في الادوية المفردة ومنهم غير اولئك ممن يطول استقرآؤهم (ستأتي البقية)

الورق

لا حاجة الى الاطناب في مكان الورق من المجتمع المَدَنيّ وموضعهِ من العلم والسياسة والتأريخ وسائر مقوّمات العمران اذ هو خزانة الافكار والاقوال ومستودَع العلوم والصنائع وترجمان الانبآء والحوادث وامين العهود والحقوق وعلى الجملة فهو معرض عمل الانسان وسجلّ اعمالهِ ورسول